دراسات كتابية وآبائية
Biblical and Patristic Studies
Coptic Orthodox Church
الكنيسة القبطية الأرثوذكسية

مسيحنا المُخلِّص العجيب في سفر يونان



اعداد
القمص تادرس يعقوب ملطي

مسيحنا المُخلِص العجيب في سفر يونان

ارتباط قصة يونان النبي بقراءات عيديّ الختان وعماد السيد المسيح

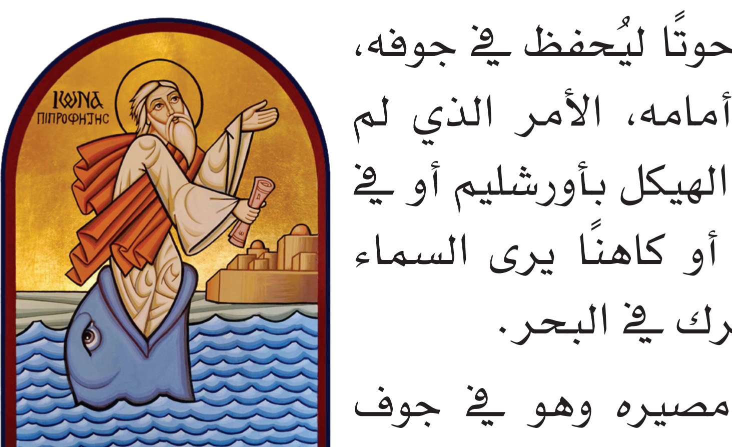
اهتم العهد القديم بتقديم الكثير من النبوات والرموز الخاصة بالمعمودية، لأنها متى تمتع بها المؤمن بفكر إنجيلي سليم تُحسب ختانًا روحيًا، بدونها لا يستطيع المؤمن أن يتمتع بالخلاص، لأن الروح القدس يقدم للمؤمن البنوة للّٰه فيصير أيقونة اللّٰه، كما يقدم له سمات تليق به كعضو في جسد المسيح، من محبة ووداعة وحب العطاء والاشتياق للسماويات، والرغبة الصادقة في خلاص البشرية الخ. انفرد سفر يونان النبي بالكشف عن المعمودية المقدسة بصورة رائعة خلال شخص يونان الذي تمتع باللقاء مع اللّٰه لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ وهو في جوف الحوت. وكما يقول السيد المسيح: "ولأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ" (مت ١٢: ٤٠).

جاء في إنجيل الأحد الذي بين عيديّ ختان السيد المسيح والغطاس، أي عماد السيد المسيح: "وفيما كان الجموع مزدحمين ابتدأ يقول "هذا الجيل شرير يطلب آية ولا تُعطى له آية إلا آية يونان النبي. لأنه كما كان يونان آية لأهل نينوى، كذلك يكون ابن الانسان أيضًا لهذا الجيل" (لو ١١: ٢٩-٣٢).

١ حقًا استصعب يونان أن يكرز للأمم وهو يعلم بروح النبوة أنه إذ يقبل الأمم الإيمان بالسيد المسيح، يرفض الكثير من اليهود أن يؤمنوا به، بل ويدبروا خطة لمحاكمته ويطلبوا قتله، ويستخدموا كل وسيلة ليسخروا به علانية، فحاول يونان الهروب من خدمة الأمم. إذ طلب الربّ منه أن يذهب إلى نينوى شمال شرق أورشليم، حاول الهروب إلى ترشيش جنوب غرب أورشليم (١: ٣).

٢ إذ هاج البحر وكادت السفينة أن تغرق، اعترف للنوتية ورئيسهم أن هذه العاصفة الخطيرة بسببه لأنه عصى خالق السماء والأرض والبحر، وطلب منهم أن يلقوه في البحر فتهدأ العاصفة (١: ١٢). طلب منه النوتية أن يصفح عنهم، لأنه اعترف بخطيته

وطلب القائه في البحر. كان ذلك رمزًا للعماد، فهدأ البحر وخاف النوتية الإله الحقيقي وقدموا له ذبائح التسبيح (١: ١٤). هرب يونان من الذهاب إلى نينوى ليكرز لأهل نينوى، فإذا به يصير كارزًا بالمعمودية، وآمن النوتية الذين من الأمم بالله بعد أن اضطر إلى الحديث معهم عن هروبه من الله.



٣ فوجئ يونان أن الله أعدّ له حوتًا ليُحفظ في جوفه، وإذا به ينظر السماء مفتوحة أمامه، الأمر الذي لم يتمتع به وهو يعبد الله سواء في الهيكل بأورشليم أو في مخدعه. لم نسمع قط أن نبيًا أو كاهنًا يرى السماء مفتوحة وهو في جوف حوت يتحرك في البحر.

٤ لم يرتبك يونان بخصوص مصيره وهو في جوف الحوت. تارة كان جوف الحوت يمتلئ بالماء، وتارة يقذف الحوت الماء خارج فمه. لم يشغله إن كان الحوت يسير في الماء بجوار سطح الماء أم يسبح في أعماق البحر. ما كان يشغله أنه يقدم تسبحة فريدة (٢: ١-٩)، يتعزى بها المؤمنون في العهد القديم والعهد الجديد إلى يومنا هذا، خاصة وسط تسابيح القيامة التي يترنم بها المؤمنون في سبت النور، حيث يشارك المؤمنون أولئك الذين تمتعوا بالسيد المسيح الذي حطّم الجحيم وحملهم للدخول في الفردوس.

بالحقيقة يليق بكل مؤمن أن يسبح بهذه التسبحة بكل قلبه، فيشعر أنه منطلق من مجد إلى مجد. يرنم قائلاً: "أصعدت من الوهدة (الهوة) حياتي أيها الربّ إلهي. حين أعيت في نفسي، ذكرت الربّ، فجاءت إليك صلاتي إلى هيكل قدسك. الذين يراعون أباطيل كاذبة يتركون نعمتهم. أما أنا فبصوت الحمد أذبح لك وأوفي بما نذرت. للربّ الخلاص" (٢: ٦-٩).

يليق بنا أن نترنم بهذه التسبحة لنجدد عمل المعمودية المقدسة على الدوام، فلا يمكن للعالم أو للشيطان أو للخطية أن تُفسد ما نلناه. نشعر بانطلاق صلواتنا إلى هيكل قدس الله. نقدم ذبيحة الحمد والشكر، ونوفي بما نذرناه من فرح داخلي. لا تتوقف قلوبنا وأذهاننا وعواطفنا عن ترديد: "للربّ الخلاص". ما ناله يونان في جوف الحوت وهو

يتمتع برمز المعمودية التي قدّسها مسيحنا، حين طلب بروح التواضع من يوحنا المعمدان أن يقوم بتعميده ليتمم كل برّ يقدمه لنا (مت ٣: ١٥).

٥ دعا الربّ يونان أن يقوم ويذهب إلى نينوي وينادي بما كلّمه الربّ نفسه. يليق أن نتساءل:

أ ما هي مشاعر يونان النبي بعدما نال ما لم ينله في هيكل الربّ بأورشليم؟ حقًا خلال الضعف البشري لم يناد في المدينة ويخبرهم بعمل اللّه معه حتى وهو في جوف الحوت وما رآه وسبّح به، بل "قال: بعد أربعين يومًا تنقلب نينوى" (٣: ٤) دون أن يفتح لهم باب الرجاء في مراحم اللّه.

ب تُرى عندما قال له الربّ قم، هل أدرك يونان أنه بكلمة الربّ له "قم"، نال يونان بركة قيامة السيد المسيح، إذ هو نفسه القيامة (يو ١١: ٢٥)؟ وهل رأى أهل نينوى على وجهه انعكاس بهاء السماء التي رآها وهو في جوف الحوت؟ هل أخبر أحد الملك بذلك، لذلك قيل: "فقام عن كرسيه وخلع رداءه عنه، وتغطى بمُسح وجلس على الرماد. ونُودي وقيل في نينوى عن أمر الملك وعظمائه: لا تذق الناس، ولا البهائم، ولا البقر، ولا الغنم شيئًا. لا ترعَ ولا تشرب ماءً. وليتغطَ بمسوح الناس والبهائم ويصرخوا إلى اللّه بشدة، ويرجعوا كل واحدٍ عن طرقه الرديئة وعن الظلم الذي في أيديهم، لعل اللّه يعود ويندم ويرجع عن حمو غضبه فلا نهلك" (٣: ٦-٩).

٦ يمكننا القول إن نوال يونان رمز المعمودية المقدسة حرك نينوى كلها من الملك إلى الطفل ليقدموا توبة صادقة، ليس بالضغط عليهم، بل أخذوا هذا القرار خلال بركة عمل اللّه في نبيه.

كثيرون يتطلعون إلى يونان مجرد نبي هارب من وجه الرب، الأمر الذي لا يستطيع أحد أن يتجاهله، لكنهم يتجاهلون موقفه بكونه النبي الوحيد الذي أرسله الرب قديمًا للكرازة في بلد أممي، أي نينوى عاصمة أشور. لعل يونان أدرك خلال ظلال النبوة ما أعلنه الرسول بولس عن إسرائيل: "بزلتهم صار الخلاص للأمم... كانت زلتهم غنى للعالم" (رو ١١: ١١، ١٢).

القمص تادرس يعقوب ملطي